البوح بو قع المرأة من خلال كتابات فضيلة الفاروق

(تجاذبات بين سلطة السياسة وتهميش الرجل وعنف المجتمع)

Explain the reality of women through the writings of Fadila Farouk Tensions between the power of politics and the marginalization of men and the violence of society.

د. سوسن ابرادشة. جامعة الجز ئر02 . أبو القاسم سعد الله .

salasilobrad@gmail.com

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن راهن المرأة العربية في مجتمعاتنا العربية الذكورية والوارثة لمجموعة من الأحكام والقيود التعسفية، التي غيبت المرأة عن كل النشاطات الإنسانية التي احتكرها الرجل لنفسه. وسنتطرق في هذه المداخلة إلى ذلك من خلال قراءات متعددة في كتابات الروائية الجزائرية "فضيلة الفاروق"، والتي انصب جلّ اهتمامها حول الحكي عن حقوق المرأة الضائعة، وعن ثقافة العنف التي تنشأ المرأة العربية على إثرها، فتبدو ضعيفة مستكينة وراضخة لكل القيود والحدود المفروضة عليها سلفا.

وقد أظهرت النتائج أنَّ الكاتبة العربية، استطاعت أن ترسم الوضع الحقيقي للأنوثة في عالمنا، وأن توصل صوتها رغم الضغوطات الممارسة عليها.

كلمات المفاتيح: نسوية، حكي، تهميش، سياسة، عنف.

Abstract:

The purpose of this study is to uncover the stakes of Arab women in our male and female Arab societies, which are subject to a series of arbitrary provisions and restrictions that have excluded women from all human activities that men have monopolized

We will discuss in this intervention activities that man has monopolized for himself. through several readings in the writings of Algerian novelist, "Fadila Al-Farouk", which focused much on the talk about the rights of women lost, and the culture of violence that arise Arab women after them, seems weak and satisfied and aware of all restrictions and limits imposed on them. The results of the study showed that the Arab writer, was able to draw the real status of femininity in our world, and to voice its voice despite all the pressures exerted on it.

***Keywords** : Feminism ; The Story ; Marginalization ; Politics ; violence*

مقدّمة:

ظلّت المرأة ولفترات طويلة، بعيدة كل البعد عن ممارسة معظم النشاطات التي يقوم بها الرجل، حيث أنّها لم تستطع التحرر من عقدة النقص التي سبّبها لها الرجل، أو التخلص من عقدة الذنب التي حملّها إيّاها، بل على العكس تماماً فقد عانت المرأة كثيرًا، لدرجة أنّه لم يتّم الاعتراف بها كإنسان في بعض الحضارات القديمة كما جاء في معظم الكتب والدواوين، فكانت مهمشّة عن كل النشاطات التي احتكرها الرجل لنفسه، فهيمن على كل الميادين التي تمسُّ مجالات الحياة ولم يبق لها صوت يُسمع أو سلطة تعملُ بها.

كما لم تكن هناك علاقة بين المرأة والسياسة، إذ استحوذ الرجل على حقل السياسة وسيطر عليه، ما عدّا بعض الاستثناءات التي يشهدّها التاريخ ويسجلها لأنها قليلة ونادرة؛ حيث صنّعت بعض النساء التاريخ بدخولهن عالم السياسة ومعرفة متاهاته وخبّاياه، وإمساكهن زمام الأمور كبلقيس ملكة سبأ، زنوبيا ملكة تدمر، شجرة الدّر ملكة مصر، راضية ملكة الهند، تينهينان ملكة الهوقار، الكاهنة حاكمة الأوراس، كليوباترا ملكة مصر... وغيرهن.

وقد أثبتت كل واحدة منهن قدّراتها الفائقة ومهارتها الكبيرة التي تؤهلها لممارسة السياسة كفعل وعمل، وتبّنيها له كإيديولوجية هضّمت أسسها ومعانيها، ومن الممارسة العملية إلى الكتابة والإبداع حيث انتقلت المرأة بقوة إلى ميدان الأدب والتأليف، وولجت دون خوفٍ أو هلعٍ عالم الرواية وتبنّت بحكمة ودهاء الخطاب السياسي، وروّضته بسلاسة لتستعين به في كتاباتها الأدبية. "إذ أضحى الخطاب السياسي من أهم الخطابات السردية السائدة، في كل الأجناس الأدبية وفي الكتابات الروائية بصفة خاصة .وهي سمة لا تقتصر على النساء فقط ـ نظرًا للاهتزازات السياسية الخطيرة والأوضاع المزرية التي يعيشها الوطن العربي من الخليج إلى المحيط، وبهذا فرضت المرأة العربية نفسها داخل أطّر الحياة التي كانت مغيبة عنها بفعل فاعلٍ، حيث صارت عضوا فعّالا مع الرجل، تناضل وتكتب معه من أجل تدعيم أسس وقيم المجتمع المدني الليبرالي الجديد والديمقراطي العقلاني"[1]

فخرجت المرأة من عنق الزجاجة التي سجنت فيها لأمد طويل وتحررت، لكنها رغم ذلك ظلت مضطهدة ومحاربة من قبل الجميع، وخاصة سلطتي الرجل والسياسة.

1 – المرأة بين سلطة السياسة وتهميش الرجل:

إنَّ ما أثّر في نجاح الرواية النسوية الجزائرية في الفترة الأخيرة، هي الأحداث التي مرّت بها الجزائر، بدءً بأزمة العشرية السوداء وفشل التجارب السياسية المستوردة كتجربة الاشتراكية، وانتهاءً بما يعيشه الفرد الجزائري في واقع تفشّت فيه كل أنواع البيروقراطية والانتهازية والوصولية، حيث طُمسَت حقوقه وسُلبت منه سلباً. ولم يجد المبدعون منابرً ليوصلوا من خلالها معاناتهم ومعاناة الفئات المهمشة مثلهم، غير الكتابة الأدبية منبراً لذلك، فراحت قرائح المبدعين تبدعُ أعمالاً تحكي عن الواقع الأليم الذي يعيشه الفرد الجزائري عامة، في حين اتجهت معظم الكاتبات للحكي عن آلام المرأة الجزائرية في مجتمع يُلِحُّ أن تبقى الأمية والجهل هما عنوان المرأة، أما غير ذلك فإن الأمر نادر الحدوث.

الكاتبة الجزائرية فضيلة الفاروق لم تكن غائبة عما يحدث بل كتبت هي الأخرى وعبّرت عن كل ما كان يحدث إزاءها، كما استعانت بالأحداث السياسية جراء الأوضاع السابقة الذكر، وغيرها من الأوضاع التي هزّت العالم كلّه والجزائر على الأخصّ.

ونظراً لأهمية حضور الخطاب السياسي في رواياتها الثلاث: (مزاج مراهقة ـ تاء الخجل ـ اكتشاف الشهوة) فقد ارتأينا استجلاء آفاق الكتابة وأفكارها السياسية عبر المتون الروائية بعيدًا عن كل الدوائر الأخرى لاسيما دائرة الرجل. فها هي المرأة التي كانت بعيدة عن عالم السياسة تقتحم ساحة الحكي المخصصة للرجال وتخترق الطابو متمنطقة بالأحاديث والآيات، لتحكي عن نفسها ساردة معاناتها وطالبة الحلول في بعض الأحيان، ممّن يمكن لهم مساعدتها في تخطي القيود التي تفرضها عليها بيئة مجتمعٍ لا يزال يعاني من عقدٍ متراكمة اتجاه المرأة، وترى في ذلك غاية الجرأة لامتلاك الحرية والخلاص، فهي تصطدم بمقاومة الرجل الذي لم يألف رؤية المرأة في المجال السياسي، ذلك أنّ الساحة السياسية كانت مخصصة للرجال ويندر أن تنخرط فيها امرأة؛ ليس في زمنها على الأقل.

ولأنّ الحكي يحتاج إلى الألم والمعاناة لاستحقاق هذا الدور فإنّ المرأة لا يمكن أن تستلهم الحكاية من عدم، ذلك أنَّ جرأتها ـ في كثير من المواقف ـ قد تثير الراوي / المرأة، رغبةً منها في

اختراق المألوف والسائد المتعارف عليه، إنّها تعمدُ لاختراق قواعد الحكي؛ ويظهر ذلك عندما نواجه بعض التعليقات وبصوت مرتفع، مثيرة اندهاش المتلقي الذي تَعودَّ على نمط واحد معين من الراويات، وهو ما يحدث تماماً مع بطلة رواية "تـاء الخجل" الشابة المتمردة ـ والتي ظلت مجهولة الاسم ـ حين تحاول أن تستميل القارئ، فتدلي بنجاحها المرفوض من قبل الجميع، حيث تقول: " كنت ذكية جدا وناجحة جداً.. مثل كل ذكور العائلة، أما العمة كلثوم والعمة نونة فكان لهما تفسير آخر لهذا النجاح، فقد كانتا تقولا إن سيدي إبراهيم كتب حجاباً لينجح الذكور وكتب آخرا ليجعل من الإناث ربات بيوت، أما أنا فيسكنني عفريت.."[2]

فاللغة التي استعملتها الكاتبة لم تخل من التمييز بين الرجل والمرأة حتى في تفسير المرأة لنجاح المرأة، ذلك أن "الحديث عن الآخر (الرجل) في مقابل المرأة (الأنثى) هو الحديث عن العلاقة بين طرفين متقابلين ومتضادين، الذات المرأة التي تخضع للآخر باعتبار التاريخ والثقافة يرجحان كفة الهيمنة لصالحه، في مقابل اضمحلال الذات الأنثوية تحت جناحه"[3]

وربما كانت الحادثة التي تعرضت لها "لويزا والي" بطلة رواية "مزاج مراهقة"، نوعًا من ممارسة السلطة الذكورية الاستبدادية التي تتعرضُ لها المرأة في أزمنة مختلفة وأمكنة كثيرة ومتشابهة، حيث يتهجم شاب على امرأة بعد أن يكتشف أنّها لم تنتخب حزبه، وبالنظر إلى التهميش الذي كانت تعانيه المرأة في مجتمعاتنا وفي تلك الفترة تحديدًا، فإنّ الأمر بدا عاديًا للجميع حتى بالنسبة لأهلها، الذين راحوا يلقون اللوم عليها، تقول:

"من انتخبت ؟

قلت: الله (لم أقصد غير ما فعلت)

ولم أنتبه كيف مد يده بسرعة نحو الأوراق في يدي واختطفها مني ثم راح يصرخ في وجهي وهو يمسك بالورقة، ها هو الرقم ستة أيتها الكاذبة..."[4]

فقد تعرضت المرأة للابتزاز والاضطهاد في أبسط حقوقها، ولم تستطع أن تتحرر من سلطة الرجل المتوارثة عبر الأجيال؛ لكنّها سرعان ما لملمت جراحها السابقة ورفعت شعار التحدي. حيث "ظهرت مجموعة من الحركات التحررية التي اعتبرت ضربا من الممارسات السياسية، كونها حركة موجهة لتغيير علاقات القوة والسلطة القائمة بين النساء والرجال في المجتمع "[5]

ومن هذا المنطلق أصبحت المرأة تودُّ منافسة الرجل كي تكسر الحواجز التي صنعتها هي بتخليها عن حقوقها، واستسلامها لآراء الرجل وأحكامه، وأحيانا كثيرة لغايات لا علاقة للرجل بها، وهو ما يقر به أحد الصحفيين الذين عملوا بالجزائر في فترة المحنة، حين يصارح بطلة رواية "مزاج مراهقة"، فيقول: "هل تعرفين يا لويزا إنه طوال عملي بالصحافة صادفت أربع أو خمس جزائريات فقط بجرأتك في الكتابة... المرأة في مجتمعنا ليست مقهورة إلى الدرجة التي يتصورها الآخرون، لأنها هي من تتنازل من أجل سمعة والدها أو من أجل خدمة زوجها وأطفالها، إنها هي من تضحي من أجل بيتها لكن كل تلك التنازلات يقابلها الجميع بنكران الجميل لأن من يتنازل مرة يصبح من الواجب عليه أن يتنازل مرات.."[6].

فالمرأة الجزائرية ورغم ما في نفسها من قوة وصمود، تظلُّ باحثة عن السلام الذي تجلبه لعائلتها قبل أن تفكر في قضية حريتها، إنّها تدفع الكثير مقابل أن تتلقى القليل، فهي من التحمت بالحرب والسياسة بطرق لم يفهمها غيرها، وهي من استغنت عن ربيع عمرها من أجل أن تنال بلادها الحرية، تقول فضيلة الفاروق على لسان بطلتها "لويزا والي": "لالة عيشة كانت امرأة قوية، إذ كانت تجالس الرجال وتشاركهم أحاديث السياسة وقد أخبرتني ذات يوم أنها كانت أول امرأة تنخرط في الحزب أيام الثورة وأنها دفعت أربعة دورو كقيمة للاشتراك وقتها "[7].

لقد كانت المرأة الجزائرية ولا تزال رمز المرأة المناضلة فهي إما الشهيدة أو ابنة الشهيد، أو أن دماء الشهداء تجري في عروقها، وهي التي راح الشعراء يقولون فيها شعراً تضمنّ نضالها وقوتها وصمودها في الحرب ولم يغفل أيضا عن جرأتها وحفاظها على شرفها، رغم ما كانت تتعرض له من عذاب.

تقول مي غصوب بهذا الشأن: " النساء الجزائريات شاركنّ في النضال ضدّ قوات الاحتلال الفرنسي، ولعبنّ دورًا مهمًا في الصراع العسكري والسياسي لا مقابل له حتى الآن في أي مكان في العالم العربي."[8]

لقد كانت المرأة الجزائرية أحسن مثال عن المرأة المتحمّلة للمسؤولية، والمقدّرة لظروف الحياة القاسية، والقادرة على استيعاب عبئها، وتجاوز مطبّات الحياة التي قد تعيقها. وبعد كل تلك المعاناة بدأت تتحرر قليلاً، حيث صار الرجل ملزما اتجاهها بردّ الجميل فقام بإخراجها من الزجاجة التي خبّأها في داخلها لعصور، وصار يطمح لتعليمها وتأهيلها في أن تكون ابنةً وأختًا وزوجةً وأمًا متعلمة ومثقفة يستطيع أن يتحاور معها ويناقشها، وهو ما تجسده الكاتبة، فتقول على لسان بعض المثقفين الذين أرادوا تحرر المرأة بعد النكبة التي ألمّت بالجزائر: "أريد امرأة مثقفة بمستوى نساء بعض الناشرين العرب الذين أتعامل معهم والشخصيات التي أعرف..

اعتذرت له فقد كان في سن والدي وثروته بالتأكيد لن تحسن من مستواه التعليمي.."[9]

إنَّ فضيلة الفاروق هي كاتبة جزائرية "أخذت على عاتقها البحث في قضايا المرأة بواسطة الحكي من أجل تغيير المنظومة الثقافية وتحرير المرأة من سجن القمع وجذور الظلم المجحفة في حقها. إضافة إلى أنها أنثى عانت بسبب جنسها كثيرا من التهميش والإقصاء، وأحيطت بهالة كبيرة من الخوف وبإشارات الحذر من الآخر المفترس"[10] الذي تعدد لها كثيراً.

فقد اعترض طريق نجاحها العديد من المطبات، بدءًا بالمجتمع وعاداته وتقاليده البائسة، إلى تهميش الأهل والعمومة لها، وهم الذين حاولوا خذلها في كثير من المرات، ثم انتهاءً بسلطة الرجل وسلطة السياسة التي وقفت ضد تفوقها، حيث صار ينظر إليها " تلك النظرة الاستعلائية وكأنّ السنين السبعة التي ضحت فيها معه لم تكن إلا استثناءا للقاعدة ونشازا في مأساة طويلة، تبدأ منذ ما قبل الاحتلال الفرنسي لتستمر عبر الزمن"[11]، ورغم ذلك واصلت السير دون استسلام لكل ما كان ضدها، ولعلَّ ما نظمته فضيلة الفاروق حول معاناة المرأة وصبرها وتحدّيها دليل على ما تعانيه في مجتمعاتنا العربية من تهميش واحتقار لكينونتها المسلوبة، فهي تحكي عن ألم المرأة الأم التي تفقد وليدها ثم توسمُ بأنّها أم الإرهابي، إنّها المعاناة مضاعفة والألم مرتين، ألم الفقد وألم الحسرة، معاناة الضياع ومأساة الفاجعة، تقول:

" تلك الأم ... التي تستحي حين ينتفخ بطنها،

كأنها حملت جنينها سرا من رجل ما ليس غير زوجها،

تلك الأم
التي نخفيه هونا، وتضعه هونا،
وتحلم به رجلا... قوة تزيل عنها همها،
تلك الأم
التي تتقاسم معه وحدة أرقها، وألمها، وأوجاعها
فيما رجل هو زوجها يعيش على حلم ليس هو حلمها،
تلك الأم
التي تعد الأيام يوما بعد يوم، ألما بعد ألم،
ومذلة بعد مذلة وهي تهدر عمرها،
تلك الأم
التي تحرم نفسها من أجل لقمته،
وتلغي نفسها من أجل كرامته
تلك الأم لا يمكن إلا أن تكون أما جزائرية..
تمارس أمومتها سراً كما تمارس المعارضة،
ولهذا تعاقب اليوم تحت سماء لا تحيط بها الأسلاك بلف جثة أحلامها
مرة بعلم، ومرة بألم
وفي كلا الحالتين
تلك جثة ابنها
خارج تلك الأكاذيب التي تقسم حلمها نصفين
ذلك إرهابي، وذلك بطل،
من الإرهابي، ومن البطل؟
وهي بعد لم تعرف قبر ابنها ؟ "[12]

2- ثقافة العنف/ أشكاله الممارسة ضد الأنوثة:

ما إن أوغلت المرأة في المأساة حتى أخذ الواقع المرير الذي تعيشه يقترب من نهاية المأساة، وبدأت ملامح نجاتها تتضح لتظهر أنّها ستكون على يدها هي نفسها، فهي التي راحت تعيد الأمل إلى ذاتها بعد أن تلاشت إمكانية وجود فارس يمتطي صهوة جواد ليمنحها الحرية الإنسانية.

فبدّت هذه المرأة على "هيئة استيهام عجائبي يتجسد في عشتار التي كان صراعها مع تموز، صراع الذكر والأنثى لتغدو الأنثى سيدة المشهد، لكنّها ليست عشتار التي تندب تموز"/ [13] بل المرأة المتَّخَيَلَة / المروي عنها، في كل ما تكتبه المرأة الكاتبة هي نفسها من تندب حظّ النساء قبلها، لتمدَّ يدها نحو الأعماق في داخلها كي تنقذ ذاتها وذوات الأخريات معها، ذلك ما جعل فضيلة الفاروق تصرخ صرخة إنسانية، تعبر فيها عن بعض آلام المرأة في الجزائر من أجل توعية قارئاتها على الأقل، وهي التي جسدت العديد من صور ومظاهر التسّلط والعنف والاغتصاب في جميع أعمالها الروائية والقصصية، فمنها ما يعود لمنظومة العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية القاسية، التي تضع المرأة في خانة القهر والعنف والتهميش، ومنها ما يعود إلى الأزمة الوطنية وما لاقته المرأة الجزائرية في تلك العشرية السوداء من مهانة واختطاف واغتصاب كشكل من أشكال العنف، ومنها أيضا ما يعود إلى الزواج وسلطة الزوج التعسفية.

فلطالما كانت العادات والتقاليد والأعراف المتبعة في المجتمع سبباً في آلام المرأة ومعاناتها، حيث تقول: " منذ جدتي التي ظللت مشلولة نصف قرن من الزمن إثر الضرب المبرح الذي تعرضت له من أخ زوجها وصفقت له القبيلة، وأغمض القانون عنه عينيه.

منذ القدم،

منذ الجواري والحريم، منذ الحروب التي تقوم من أجل مزيد من الغنائم،

منهن إليَّ... إليَّ أنا،

لا شيء تغير سوى تنوع في وسائل القمع وانتهاك كرامة النساء..." [14]

فمنذ بداية العائلة وقبلها بكثير، ومصائر النساء لا تختلف، قمع وضربٌ وانتهاك لأبسط حقوقها، إنها عقلية متوارثة بين الأجيال، فيحلّ للرجل أن يفعل ما يشاء بزوجة أخيه وأبناءه لأجل أن يحفظ كرامته ويصونه في غيابه، فالجدة التي ظلّت مشلولة لا تقدر على الحراك، كان ذنبها أنَّ زوجها تركها لأجل الجهاد أو العمل أو المال أو لأمور أخرى، وكان ذنبها أيضا أنّها

ابنة هذا المجتمع الذي لا يعترف بالمرأة كائنا بشرياً مثلها مثل الرجل، لا تختلف عنه في شيء، تفكر كما يفكر وتحس كما يحس وتعرف الخطأ من الصحيح أيضاً. لكن المجتمع لم يكن ليعترف بهذا فمصيرها كمصير سابقاتها دون تغيير، تقول:

"أنت استمرارية لأمك، أمك استمرارية لجدتك، وهكذا هي سلسلة الإنسان مثل ضوء النجوم، تأكدي أن حياتك مهما كانت دقيقة في اختيار شريك عمرك ستشبه حياة أمك تماما.." [15]

إنَّ العنف الممارس على المرأة في المجتمع الجزائري والذي عمدّت الروائية إلى تصويره هو في الحقيقة أمر واقع، خاصةً إذا تعلق الأمر بعلاقة الإخوة والأولياء في البيت والتي غالبا ما يسودها بعضٌ من القلق والتشويش. ذلك أنَّ مجتمعنا مجتمع منغلق لا يعرف أسلوب الحوار أبداً، وهو ما حدث مع باني ـ بطلة رواية اكتشاف الشهوة ـ حين رآها أخاها تلعب في الشارع مع الصبيان، تقول : "بالنسبة إليَّ إلياس تنين خرافي بعشرة رؤوس، قد يطالني حتى وإن عدت إلى بطن أمي... كان في الرابعة عشر، حين رآني ذات يوم مع عصابة أبناء الرحبة عاد إلى البيت هائجا كثور مجنون وأضرم النار في سريري، وقد كاد البيت يحترق يومها بسبب فعلته لولا أن هبَّ الجيران وأخمدوا الحريق.. وقد وقف والدي أمام فعلته مديد القامة فخورا بما حدث، وقال له أمام الجميع: في المرة القادمة عليك أن تحرق السرير حين تكون نائمة عليه..." [16]

فإذا كانت صورة الأخ في ذهنها تشبه صورة التنين الأسطوري فإنّ الأمر مؤلم حقاً، وربما ذلك ما جعلها تحسب حسابا آخراً حيث أنّها خافت من النوم على سريرها مرة ثانية، فتقول:

"أتذكر أنه صار صعب علي أن أؤم إلى فراشي إذا ما نعست، كنت أرتمي على أي كنبة في الدار وأنام ومرة نمت في المطبخ على الجلد الذي تنام عليه الهرة .."[17]، ففعلته تلك أشعرَتها أنها فعلا مهددة بالحريق مرة أخرى، ما جعلها تفقد الإحساس بالأمان في المكان الذي كان يجب أن يعطيها كل الحب والطمأنينة لكن الأخ والأب والمجتمع كله يمنع حدوث ذلك، لأنّ إعطاء الفتاة فرصة للتعبير عن الذات و للبروز يعد أمرا ممنوعاً. كما لا يحق لها أن تقرر

مصيرها أو أن تقبل أو ترفض أمرا يتعلق بها، ليس لأن العائلة أو الأب والأخ يدركون حسن ما اختاروه لها، بل لأنّهم يتحاشون أن تبقى هذه العالة مقيدة لديهم، فهم يقررون زواجها ويرفضون طلاقها ولو عاشت المر والجحيم مع من اختاروه لها، وهو ما حدث لباني كما تقول: "الباب كان مفتوحاً على الزنقة، قام إلياس وألقى النظرة على الخارج ثم سألني دون أن يرد أحدهم على التحية: أين مود؟

وضعت حقيبتي جانبا، وبحثت عن الحرب في أعينهم جميعا وحين رأيتها أجبت: لقد طلقني..

الخبر الصدمة يحول الجبابرة إلى أقزام.....

فإذا بإلياس يلحق بي ويقول لي بغروره الأجوف: سنسوي الأمر غدا وكل شيء سيعود إلى طبيعته...

قلت له: الحياة بيننا مستحيلة لا تحاول...

لكنه لم يعبأ بما قلت ورمى تعليقه قائلاً: أنا الذي أقرر ولست أنت وخرج..."[18].

إنَّ العنف والتسلّط الأسري من أصعب أنواع العنف المتعددة، كما أنه أقسى وأشد من العنف الخارجي كعنف وتسلط الزوج مثلًا، ذلك أنَّ عنف الأسرة يشكل عقدًا صعبة وكبيرة في الفرد المعنّف، ولأنّ الإنسان بطبيعته يبحث عن الهدوء والأمان في المكان الذي نشأ فيه وبين أناس يحبهم ويحبونه لا خارجه.

وبالرغم من أنَّ ظاهرة تسلط الرجل المتمثلة في العنف الأسري في مجتمعاتنا ظاهرة منتشرة، فإنّ المرأة ورغم ضررها في جميع مراحل حياتها تلجأ إلى السكوت والتزام الصمت كأحسن وسيلة لتدافع بها عن نفسها.

حيث تقول عن رد الأخ بعد طلاق أخته: "مود رفض التحدث مع إلياس في الموضوع، وقال له بالحرف الواحد : أختك ترفضني، إنها لا تريدني ولهذا السبب أعدتها إليكم.

إلياس بعدها جنَّ، أراد قتلي وتمزيق جثتي في الزنقة.

مولود رجل تتمناه كل امرأة (قالت أمي).

مولود لم يخسر شيئا، أنت التي خسرت كل شيء (قال أمي ذلك مجددا).

ما الذي يزعجكم إن خسرت أو ربحت الأمر يعنيني.. ولكن إلياس لم يسمح لي بمواصلة الكلام، صفعني حتى وقعت أرضا ثم أمسكني من شعري وراح يزمجر:

ستعودين إليه في أقرب فرصة وستركعين أمامه مثل الكلبة، وستعيشين معه حتى تموتي... حتى أموت..

كان والدي يفعل ذلك بوالدتي أيضا، كنا أطفالاً وكان يمسكها من شعرها ويرغمها على الركوع أمام قدميه ويردد: حتى تموتي، حتى تموتي...

لم نكن نفهم سر الخلافات التي بينهما، لكننا كنا نفهم فقط أنه يرغمها على شيء ما ستقوم به حتى الموت.

كنت أسمع والدتي وهي تحمسه أكثر: اضربها أكثر..

وقد فعل ما بوسعه لإرضائها وإرضاء حقارته ثم خرج ظانا أنه أنهى مهمته.

أمي تعمدت أن تؤذيني بالكلام وظنت هي الأخرى أنها أدت واجباً ..."[19]

لقد تعرضت باني للضرب من طرف أخيها الذي هددها بالرجوع إلى زوجها، لكن المشكلة الكبرى لم تكمن فيه فقط، بل إنَّ الوالدة أيضا رفضت عودة ابنتها إلى منزل والدها مهما كان نوع الرجوع، فماذا إذا كان الأمر هو الطلاق؟؟.

بينما وقف الأب رامقاً إياها بنظرة لا تحسد عليها، لم يتدخل إنّما ترك التصرف في هذا الموضوع للأخ والوالدة، ذلك أن "الأب العربي بالخصوص يمتاز بالتعالي والابتعاد عن أبنائه"[20]، وعدم تفهمه لمشاعرهم أو أحاسيسهم أو قبول آرائهم وتوجهاتهم في الحياة.

سكتت باني ورضيت بالضرب المبرح كما سكتت يمينة الطفلة الصغيرة، حيث تقول:

" صرخت الوالدة في وجهها وقالت: tais toi yamina ..."[21]

فلتسكت "يمينة" طواعية أو كراهية عن رفضها للأوضاع التي تسير عليها البلاد، فلا حق ليمينة في الكلام والتعبير عمّا تراه أو عما تحس به.

"يمينة" وعدّة من النساء غيرها مهما اختلفت أعمارهن، هن نموذج بارز عن التهكم والظلم الذي يمارس ضد المرأة، وعن الوحشية والاغتصاب الذي تتعرض له النساء كل يوم وعلى مرأى من الأعين، مثلما حدث مع "محبوبة" التي كانت فائقة الجمال وبمجرد وفاة زوجها الذي كان يمثل رمزا من رموز أغنية المالوف بقسنطينة، حتى طمع بجمالها العديد وأولهم

الوالي، كما تقول: "وبعدها بأشهر زار الوالي محبوبة في بيتها، وعرض عليها أن تكون عشيقته مقابل أن يوفر لها الحياة الرغيدة التي بالإمكان أن تحميها من مخالب المجتمع، عرفت ذلك منها.

في اليوم التالي قالت لي أنها بصقت على وجهه. "[22]

فبدلا من أن يكون جمالها نعمة لها صار نقمة عليها، وصارت مُطالبة بإرضاء المسؤولين كي تعيش مرتاحة البال دون عناء، وهو فعلا ما يحدث في المجتمعات المنغلقة التي تعاني منها النساء أمام جهل وتخلف العنصر المسيطر / الرجل.

ومن الواضح أنَّ الكاتبة أرادت أن توازي بين المرأة والرجل من خلال إبرازها لطلب الوالي ورفض محبوبة لهذا الطلب رغم الفقر المدقع الذي تعيش فيه، وأن تتقصى الأبعاد السوسيولوجية والإيديولوجية لكل منهما سيما عندما أكدّت على الوضع الاجتماعي لمحبوبة.

كما قد تتعرض المرأة إلى أقسى أنواع الضرب والتجريح من طرف الزوج، خاصة إذا لم تكن بمستوى هوائياته، وتختلف طريقة تعامل وتفهم الرجل (الزوج) للمرأة (الزوجة) ليس حسب درجة العلم والثقافة التي يمتلكها الرجل بل إنَّ الأمر أكثر تعقيدا من ذلك.

تقول: " استقبلني بصفعة أوقعتني أرضا ثم تمادى في ضربي وكانت تلك أول مرة يكون فيها عنيفا معي إلى تلك الدرجة...

كانت ليلة خرساء، بلا صوت، بلا نفس، بلا احتجاج !!!

لم أستطع فتح عيني ولا تحريك يدي ولا قدمي، كنت بالمختصر المفيد ميتة..." [23].

إنَّ الزوج بالنسبة للمرأة هو السند والأمان والحياة الجديدة التي تطمح في أن تجعلها حلوة لكليهما، لكنها أحيانا تصطدم بعالم مغاير تماماً فعوضا أن تجد كل ذلك، تجد نفسها مع أكبر مشكلة قد تصادفها. فلقد كانت الهجرة مع زوج مجهول بالنسبة لها الحل الأنسب للهروب من عنف الأسرة التي ما تفتأ بتذكيرها بأنها عالة على العائلة، لكنّها كانت مخطئة تماماً ذلك أنَّ "المرأة بالنسبة لهذا الرجل الغريب خيمة مستباحة..." [24]، لا قيمة لها ولا وزن.

وإذا كانت قد عمدت إلى تصوير الرجل في هيئة الأخ والأب، وحتى الزوج فإنها أشارت إلى صور أخرى وهي علاقة الأقارب، قد كانت المرأة ضحية لقرارات كثيرة يجسدها الجيل القديم المتمثل في الأعمام والأخوال على السواء، لأن غياب الوالد أحيانا قد يكون سببا في تدخل الأقارب في تقرير مصائر الزوجة والأولاد، ولقد كانت لويزا ضحية لتلك القرارات، فتقول: "

إنني أتنكر من أجل أن يدعني رجال العائلة بسلام..."[25]، لقد سعت الروائية بذكرها لعلاقة أعمامها بحجابها ودراستها إلى تصوير صراع الأجيال في أعمامها:

" الجيل القديم / الآباء الذين تمسكوا بعاداتهم وتقاليدهم وتمنوا نفس الطريق لأبنائهم لتحقيق المثالية.

الجيل الجديد/ جيل الأبناء التواق للحرية، المتعطش للمستقبل الرافض للعادات والتقاليد التي يرى فيها قيودا تكبله[26]، وربما هذا ما جعلها تتحداهم وتتفوق في دراستها من أجل أن تنال حريتها، ذلك أنّها تيقنت منذ صغرها أنَّ العلم هو أفضل وسيلة للحرية وقهر المستبدين، وأنّ الرضوخ لمثل تلك الأمور بسهولة يساعد الظالم ويعطيه القوة لمواصلة استعماله سياسة العنف والتهميش مع الضعفاء.

"وقد لا تدري المرأة أنّها بصبرها هذا تدمر نفسها بنفسها وتساهم بطريقة أخرى في العنف الممارس عليها، وقد أثبتت الدراسات والإحصائيات حول المرأة والعنف الأسري أن 9000 امرأة تتعرض للعنف الأسري إلا أن 15% فقط منهم يرغبن في الحصول على شهادة طبية تثبت آثار العنف"[27] وهو ما يطابق تماما ردة فعل الشرطة الفرنسية حين أرادوا التحقيق مع باني بعد أن ضربها زوجها، فتقول:

" في مخفر الشرطة هز الضابط كتفيه وقال بسخرية :

أوه ... النساء العربيات.

قال ذلك بعد أن قلت له إنني متنازلة عن حقي... ."[28].

ففي الوقت الذي يجب أن تحمي العائلة بعضها البعض، يصبح الاحتراس من الأقرباء قضية مفروضة، ويصبح الاغتصاب لعبة الأهل المسلية.

تقول: " كان يعرف أيضا كل السبل المؤدية إلى ضعفي المستنجد به، وأظنني أخطأت حين فتحت له كل أبوابي، أخطأت حين تصورته أملا لنجاتي من بيت يغتصب حرمته الأعمام..."[29].

فجمعها لكلمة الاغتصاب التي تعدُّ قضية يعاقب عليها الشرع والقانون وكلمة الأعمام، يصورُ لنا مدى تهكم واضطراب العلاقة الجامعة بين عائلتها وأعمامها، ثم تضيفُ حول تحذير والدها لها من استغلال حبيب ابن عمها لبراءتها والتلاعب بمشاعرها قائلةً: "احترسي من أبناء العمومة قبل أن تحترسي من الأغراب..."[30]، فاستغلال ابن عمها لها ولعواطفها وإيهامه إيّاها الحب والاستقرار شكَّلَ لها صدمة عنيفة، جعلتها تفقد الثقة أكثر من ذي قبل بكل أفراد العائلة، بدءًا بوالدها الذي فرَّ خارج البلاد تاركا لوالدتها مسؤولية تربيتهم والاعتناء بهم، إلى كل فرد من أفراد عائلتها الكبيرة التي لم تجنِ من امتداد العلاقة بينهم وبين عائلتها الصغيرة، غير التهميش وسوء المعاملة والإحساس بالذل والهوان وتذكيرهم دائماً بأنهم تحت السيطرة، لذلك عمدّت إلى تحقيق رغبتها في التحرر من قبضتهم من خلال نصوصها وكتابتها الرافضة لمثل هذه العلاقات العائلية الظالمة.

أما الأمر الآخر الذي يجب أن نشير إليه أيضا هو التخلف الذي تعيشه المرأة في مجتمعاتنا، فالرفض والإهمال والتهميش الذي تلاقيه من طرف الرجل الذي لم يعترف بذكائها، أو قدرتها على التعلم والتعليم مثلها مثله، بل إنّه ظلّ يرى فيها صنما تلبسه العبودية والخضوع.

إن المرأة بالنسبة للرجل مجرد مظهر وإن العبودية هي جوهر هذا المظهر، وكلما كانت مقصية ومهمشة قللت من خطورتها، ذلك أنّها لم تخلق لمثل الأمور التي يمارسها الرجل بل إنها خلقت لغاية واحدة، وهي "إرضاء الرجل"، فهذا التقييد الذي تتعرض له المرأة "يخدم مصالح نظام اجتماعي ذكوري، ويقود إلى نتائج معينة منها إنزال المرأة إلى أدنى مرتبة في نظام اجتماعي يعتمد التوبيخ، ومنها أيضا عزل المرأة في البيت، وهذا يعني استعمالها كقوة محافظة تدعم لا شعوريا الوضع القائم الذي أوجده الرجل، فالمرأة بحصرها في الإطار المنزلي تفتقر إلى حرية الوصول إلى أنواع السلطة أو المركز أو القيمة الثقافية التي هي من امتيازات الرجل"[31]، تقول:

" أمام جهل والدتي بأمور البلد يجد والدي الفرصة لإرضاء غروره ففي كل كلامها هي تخطئ وهو يصحح، يبلغ ذروة غروره فيخرج ويتركها لأنها أرهقته بقلة فهمها.

لم تذهب والدتي إلى المدرسة قط، وهي بدوننا نحن أبناءها لا تساوي شيئا وحين تحاول أن ترى الأشياء بعينيها تراها بالمقلوب، وكونها حرمت من العلم فتلك جريمة والديها وليست جريمتها.

لكن جريمة والدي أكبر منه لأنه يحسسها دائما أنها كائن تافه، ولقد اقتنعت بذلك حتى أصبحت أحيانا تستفهه نفسها أمامنا كردّة فعل طبيعية لئلا يستفهها أحد.."[32]، فحرمان المرأة من التعلم والدراسة ليست ظاهرة غريبة في المجتمعات الجزائرية، حيث تؤكد الإحصائيات أنَّ " نسبة انتشار الأمية في الجزائر بعد الاستقلال قاربت التسعين بالمائة، الفئة الكبرى منها تمثلها النساء. وبعد عشر سنوات أصبحت تعادل أو تقارب السبعين بالمائة أو أقل، وتمثل المرأة فيها الفئة الأكبر وفي العشرية الأخيرة من القرن الماضي. تجاوزت نسبة التعليم داخل البلاد الثمانون بالمائة وبقيت بعض القرى والمداشر النائية غير مجهزة

بالمنشآت العمرانية والسكنات الحضرية التي تؤهل الأطفال للدراسة بعيدة بعض الشيء عن هذا الواقع الجديد الذي فرضته آليات جديدة "[33] ، وما إن ظهرت الحرب مرة ثانية حتى عاودت ظاهرة الأمية الانتشار واستغنى معظم الشعب عن تعليم أطفالهم، لما رأوه من اختطاف واغتصاب وقتل تعرضَ له الصغار قبل الكبار في تلك الفترة الرهيبة من تاريخ الجزائر، ذلك أنّنا " شعبٌ تعودَ على القمع ولهذا يستحيل أن نتحرر دفعة واحدة، ويلزمنا ثورة نتوارثها أجيال لنتخلص تماما من نظام السجن الذي نعتبره نمطا لحياتنا"[34]، وهنا لا يمكن أن يكون الرجل أو الذكورة بعينها وحدها السبب في تهميش المرأة وتحقيرها وهضم حقوقها، إنّما مجموعة متراكبة ومتراكمة من قوانين المجتمع و قيود الدين وبؤس العادات والتقاليد وأحكام العرف وكل ما قد يُسير هذا الجمع المشترك بين المرأة والرجل.

خاتمة:

طمحت هذه الدراسة إلى الكشف عن واقع المرأة العربية في الوطن العربي، وإبراز أهم القضايا التي تتناولها الكاتبات العربيات في أعمالهن السردية الروائية، فقد أخذت المبدعة

العربية على عاتقها مهمة الحكي النسوي والذي تميزّ بقوة الطرح والجرأة وتصوير نضال المرأة وآلامها ومعاناتها.

إنَّ السيطرة والقمع والاستبداد الذي تعرضت له المرأة هو نتاج ظروف حتمية أحاطت بالمجتمع/ الوطن الذي تعيش فيه، فمنذ الاستعمار والعنف يمارس ضد كل ما هو جزائري، الاستعمار يقمع الشعب في الخارج والرجل يقمع المرأة في الداخل وتظل عقدة النقص والإحساس بالظلم مركبة لكليهما على حد سواء.

إنَّ الأوضاع التي ساهمت في نشأة المرأة والمتعلقة بمكانتها الاجتماعية وتكوينها الثقافي والعلمي، خلقت خصوصية في نفسية المرأة وليس غريبا أن تشكل عُقدا في داخلها بفعل تراكم القيود وفرض السلطات اللاَّمتناهية.

قائمة المراجع والمصادر:

1- تركي علي الربيعو: العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1995م.

2- رفقة محمد دودين: خطاب الرواية النسوية العربية المعاصرة، منشورات أمانة عمان الكبرى، الأردن، ط 1، 2007م.

3- صالح مفقودة: صورة المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2003م.

4- عبد الرحمن أبو عوف: قراءة في الكتابات الأنثوية، (الرواية والقصة والقصيرة المصرية) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط 1، 2001م

5- عبد الرحمن تيبرماسين وآخرون: السرد وهاجس التمرد في روايات فضيلة الفاروق، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2012م.

فضيلة الفاروق:

6- تاء الخجل، دار الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، 2002م.

7- مزاج مراهقة، دار الفارابي للنشر، بيروت، لبنان، ط 2، 2007م.

8- فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، دار الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، 2005م.

9- فواز عويد العنزي: الأسرة العربية وإشكالية التخلف والعنف، نظرة سوسيولوجية، مجلة كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خيضر _ بسكرة _ ، العدد 2، مارس 2007م، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2007م.

10- مي غصوب : المرأة العربية وذكورية الأصالة، بحوث اجتماعية ، العدد السابع، دار الساقي، لندن

الهوامش والإحالات:

1- عبد الرحمن أبو عوف: قراءة في الكتابات الأنثوية، (الرواية والقصة والقصيرة المصرية) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط 1، 2001 م، ص : 10

2- فضيلة الفاروق: تاء الخجل، دار الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، 2002م، ص: 22

3- عبد الرحمن تيبرماسين وآخرون: السرد وهاجس التمرد في روايات فضيلة الفاروق، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2012م، ص: 84

4- فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، دار الفارابي للنشر، بيروت، لبنان، ط 2، 2007م، ص : 54

5- رفقة محمد دودين: خطاب الرواية النسوية العربية المعاصرة، منشورات أمانة عمان الكبرى، الأردن، ط 1، 2007م، ص:20

6- فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 152

7- فضيلة الفاروق: المصدر السابق، ص: 22.

8- مي غصوب : المرأة العربية وذكورية الأصالة، بحوث اجتماعية، العدد 7، دار الساقي، لندن، ص: 40

9- فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص: 84

10-عبد الرحمن تيبرماسين وآخرون: السرد وهاجس التمرد في روايات فضيلة الفاروق، ص: 87

11- صالح مفقودة:صورة المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر،2003م،ص: 31

12- فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص : 151/150

13- نادية هناوي: الجسدنة بين المحو والخط (الذكورية/ الأنثوية) مقاربات في النقد الثقافي، دار الرافدين، بيروت، لبنان، ط1، 2016م، ص: 145

14- فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص: 11

15- فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 37/36

16- فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، دار الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، 2005م، ص:14

17- المصدر نفسه، ص:15/14

18- المصدر نفسه، ص: 84

19- المصدر نفسه، ص: 88/87

20- فواز عويد العنزي: الأسرة العربية وإشكالية التخلف والعنف، نظرة سوسيولوجية، مجلة كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خيضر _ بسكرة _ ، العدد 2، مارس 2007م، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2007م، ص: 156

21- فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص:95

22- فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، ص: 68

23- المصدر نفسه، ص:58

24- المصدر نفسه، ص: 61

25- فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 22

26- عبد الرحمن تيبرماسين وآخرين: السرد وهاجس التمرد عند فضيلة الفاروق، ص: 119

27- زعطوط رمضان: العنف المستور، والعنف والمجتمع، أعمال الملتقى الدولي الأول (10/09 مارس 2003م) ، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، ص 230. نقلا عن: عبد الرحمن تيبرماسين وآخرين: السرد وهاجس التمرد عند فضيلة الفاروق، ص: 121

28- فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، ص: 59

29- فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 32/31

30- المصدر نفسه، ص: 52

31- كارين ساكس: الجمعيات النسائية لدى الإيجو، ص 323، نقلا عن: تركي علي الربيعو: العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1995م، ص: 154

32- فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص: 124/123

33- صالح مفقودة: صورة المرأة في الرواية الجزائرية، ص: 17

34- فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، ص: 112